

تطور البحث الدلالي

(50) وقد يسد غيرها في معنى دلالي متميز ، فإنّ تعالى أراد الظمآن بكل ما تحمله الكلمة في تضاعيفها الأولية والثانوية من دلالات خاصة بها فلا تسد مسدها - مثلاً - كلمة الرائي ، لأنّ الرائي قد يرى السراب من بعيد وهو ليس بحاجة إليه ، فلا يتكلف إلا الخداع البصري أما الظمآن فإنه يكد ويكدح ويناضل من أجل الوصول إلى الماء حتى إذا وصل إليه وإذا بما حسبه ماءً قد وجده سراياً ، فكانت الحسرة أعظم والحاجة أشد ولم يبرد غليلاً ، ولم يدرك أملاً . قال أبو هلال العسكري (ت : 395 تقريباً) : " فلو قال يحسبه الرائي ماءً لم يقع قوله (الظمآن) لأن الظمآن أشد فاقة إليه وأعظم حرصاً عليه (1) . ب - وما أراد به القرآن الاتساع المترامي ، فإنه يختار له الألفاظ الدالة على هذا الاتساع بكل شمولية واستيعاب فحينما نتدارس بإجلال قوله تعالى : (وما من دابة في الأرض إلا على رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين *) (2) . فسجد عمومية الألفاظ وشموليتها مما يتناسب مع عمومية المعاني وتناولها ، ويتواكب مع استقرار كل الجزئيات وعدم تناهيتها ، وذلك من أعاجيب القرآن وطرائفه ، وهذه الألفاظ في هذه الآية هي : دابة ، الأرض ، الرزق ، مستقرها ، مستودعها ، كل ، كتاب . هذه الألفاظ في تراصفها وتقاطرها تفيد عموماً لا خصوص معه وتتجه نحو الإطلاق فلا تقييد ، كما سنرى في هذا العرض : - الدابة تستوعب مجموعة عامة مركبة من خلق الله مما دبّ وهب ودرج من الانس والجن والطيور والأنعام والوحوش والهوام وكائنات لا نعرفها ، ومخلوقات لا نتصورها ، رأيت عمومية وشمولية كهذا في دلالة لفظ واحد عليه مع عدم إمكان حصر ملايين النسمات في ضوئه . والأرض هذه الكرة الفسيحة بجبالها ووهادها ومفاوزها وأشجارها _____ (1) العسكري ، كتاب الصناعتين : 246 . (2) سورة هود : 6 .